الخطاب الدينِي بينِ نزعةَ المغالاةَ وسوء الفهم

أ.بشوات إسماعيل
جامعة الدكتور :يحي فارس المدية

الملخص :

يعيش الإنسان في وسط طبيعي فهو يؤثر ويتأثر بما حوله (العالم الخارجي) ، وهذا ما يولد التفاعل والتواصل داخل نطاق الحيز الذي ينتمي إليه وفق علاقات تواصليه مختلفة ، تهدف من دون شك إلى إنجاح هذه العملية الاتصالية من خلال تحقيق اهتماماته ومقاصده ، والتي يعتبر الخطاب أداة فعالة في إنجاحها أو فشلها .

وقد أخذ الخطاب عدة أشكال وأنماط تختلف باختلاف المتلقين من جهة وكذا نوعه من جهة أخرى ، ومن أهم الخطابات التي أخذت حيزا كبيرا في مجتمعاتنا الإسلامية الخطاب الديني، الذي يرتبط بأبعاد الأمة ماض، حاضر، مستقبل) ،كونه مرآة عاكسة لمبادئ ومقاصد الرسالة المحمدية التي تصلح لكل مكان وزمان، غيرأن هذا الخطاب بدأ يأخذ أبعاد خطيرة من خلال الزخم والتراكمات المتناحرة التي يشهدها العالم اليوم ، وهذا ما أثر على نوعية وأداء الخطاب الديني الذي أضحى خطابا مبتورا من سياقاته الإسلامية الصافية ضاربا بذلك مقتضيات العقيدة السمحة، وقد أخذ منعرجات ساهمت بشكل أو آخر في ظهور تيارات فكرية منها من يغلب طابع المغالاة والتعصب في أداء وإصدار الأحكام جعلا منه خطابا منافيا لقواعد وأحكام الشريعة الإسلامية ومنها ما يرتكز على مصطلحات

ومفاهيم لا تمت للإسلام بشيء نابعة من أفكار ومعتقدات غربية خالصة ،كالإسلاموفوبيا، ورجال الدين، الإسلاماويون ،وهذا ما انعكس سلبا على الجانب التأويلي الخطاب الديني.

وبين هذا وذاك غابت روح الوسطية السمحة في هذه العقيدة الفاضلة حيث تداخلت الخطابات الدينية بشكل غير واضح، مما أثر على فهم معالم وأسس الشريعة الإسلامية ، كما غيبت روح الوسطية السمحة مما شكل عائقا لفهم وإفهام مقاصد وأحكام الشريعة الإسلامية، وهذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤلات الآتية :

ماهي آثار المغالاة على صورة الخطاب الإسلامي؟وماتأثير فكرة العصرنة على الأداء الخطابي؟ وإلى أي مدى يمكن الخطاب الديني المعتدل أن يرسي أحكام الوسطية السمحة؟

الكلمات المفتاحية : الخطاب الديني ، المغالاة ، سوء الفهم .

Le discours religieux entre la tendance exagérée et l'incompréhension

Résumé

L'être humain qui vit dans un milieu naturel, influence et influencé par tout ce qui l'entoure (le monde extérieur); ce qui génère l'interaction et la communication à l'intérieur d'un espace auquel il appartient selon de diverses relations communicativesorientées, sans aucun doute, vers le succès de cette opération communicative par le biais de l'atteintes de ses préoccupations et ses objectifs où le discours est considéré comme outil efficace dans sa réussite ou dans son échec.

Le discours a pris plusieurs formes et types qui diffère selon les récepteurs d'une part, ainsi que de son genre d'une autre part. Parmi les discours qui ont pris la dominance dans notre société musulmane, on trouve le discours religieux qui tire ses origines des dimensions de la nation (passé,

présent, futur), comme étant le miroir qui reflète les principes et les attentes du Message de notre prophète Mohamed ,que le salut soit sur lui,qui reste fiable pour chaque lieu et temps, cependant ce discours a commencé à dévier de son droit chemin produit par les accumulations conflictuelles que connait le monde aujourd'hui. Ce qui a influencé la qualité et la transmission du discours religieux qui est devenu undiscours amputé de ses nets contextes islamiques faisant fi des exigences de la foi tolérante en empruntant des déviations qui a participé d'une manière ou une autre à la naissance des courants idéologiques qui optent pour l'exagération et l'intolérance dans la condamnation en le rendant discours terroriste non compatible avec les règles et les dispositions de la charia islamique. Ainsi pour ceux qui puisentleurs terminologies et leurs concepts dans des sources qui n'ont aucun lien avec l'Islam découlant des idéologies occidentales, telle que l'islamophobie, et les hommes de la religion, les islamistes, ce qui a influé négativement sur le côté herméneutique du discours religieux.

Entre ceux-ci et ceux-là, la grande absente c'est la tolérante modération dans cette sublime foi où chevauchent les discours religieux d'une manière ambiguë ce qui a influencé la compréhension des indices et des bases de la Charia islamique en excluant l'esprit de la modération tolérante ce qui constitue un obstacle à comprendre et à expliquer les objectifs et les dispositions de la Charia islamique, ce qui nous anime à poser les questions suivantes:

Quels sont les effets de l'exagération sur le discours religieux? Et à quelle mesure le discours religieux peut-il ancré les tolérantes dispositions modérées.

Mots clés : le discours religieux, l'exagération, l'incompréhension.

مقدمة :

لقد أضحى إعادة النظر في صورة وأداء الخطاب الديني المعاصر مطلبا أساسيا، لا لسبب إلا لكونه بدأ يأخذ منعرجات حاسمة أصبحت تهدد أهدافه ومقاصده الشرعية، فالمتأمل لواقع الخطاب الديني يلمس بشكل واضح تزايد موجة الممارسات التأويلية التي تتنازعها مختلف التيارات الفكرية، وهو ما انعكس جليا على مستوى تأثير الخطاب من خلال العلاقة التفاعلية التي تربط أطراف العملية التخاطبية.

وفي خضم هذا الزخم الهائل من التراكمات المعرفية والمفاهيم التجديدية التي باتت تعصف بثوابت الخطاب الديني، وتعيق تحقيق أهدافه وكلياته الشرعية، ولاسيما ما تعلق بالنوعية والأداء اللذان يعتبران من صميم العملية التخاطبية. وما زاد الأمر تعقيدا اتساع الهوة بين مختلف الاتجاهات الفكرية والدينية، التي أسفرت فيما بعد على خطابات شكلية مبتورة من سياقاتها وأحكامها الدينية ما جعلها تصب في خانة التنطع والغلو، متجاوزة بذلك حدود الشريعة الإسلامية مغلبة الخطاب المتشدد من جهة على حساب روح الاعتدال والسماحة الإسلامية، وكذا التجديد والعصرنة تحت غطاء العولمة والعلمانية، وهذا بدوره يشكل عائقا لفهم آليات وأبعاد الخطاب الديني المعاصر فهما صحيحا.

ومما لا شك فيه أن غياب الفهم كان له الأثر الواضح في تنامي عدة ظواهر انعكست بدورها سلبا على معالم الخطاب الديني، والتي اجتثت خصوصيته وجردته من صورته الطبيعية، فظهرت في الأفق مفاهيم جديدة تنطوي على ما يعرف بالإسلام العلماني المعاصر ضمن سياق الحداثة

والتطور، وهو بدوره ما يقارب مفهوم العولمة التي لا تقل خطورة عن سابقتها، فهي بدورها تهدف في جوهرها إلى تحقيق مصالحها من خلال فصل الدين عن مختلف المعاملات الدينية والدنيوية وهو ما يتنافى مع أحكام ونصوص الشريعة الإسلامية.

وهذا ما شكل أرضية خصبة ساهمت بدورها في نمو الفكر التجديدي الذي يدعو للحداثة والعصرنة باستعمال الحرية والتفكير تحت شعار "العقل فوق كل سلطة" من جهة، وتزايد المد العولمي المتأثربالفكر الغربي من خلال السعي لمحو ملامح الشخصية لإسلاميةمن أجل التأسيس لرؤية غربية خالصةضمن ، وهو ما يخالف مبادئ وأحكام القواعد الفقهية، مكرسا بذلك النموذج الغربي على الفكر الإسلامي المعتدل.

كما كان لهذه المتغيرات كان لهاالأثر الواضح في ظهور مصطلحات لا تمت للإسلام بصلة، كرجال الدين والإسلاموفوبيا،وهي أفكارغربية تهدف في صميمها لمحاولة تشويه الإسلام و ضرب أواصر الأمة الإسلامية تحت لواء الانفتاح والحداثة والعصرنة.

وأمام تفاقم الهواجس التي تمس بفاعلية الخطاب الديني، فإنه وجب علينا أن نتمسك بالوسطية والاعتدال في الخطاب الديني, والتي من شأنه أنها ترفع من مكانة الخطاب الديني الذي يعتبر مسألة قديمة ثابتة المعالم نابعة من حقيقة ربانية خالصة لالبس فيها, ولذا وجب علينا تيسير معالم ديننا الحنيف، والابتعاد عن كل تجاوزاتوالاختلافات التي من شأنها أن تعيق العملية التواصلية وتؤثر سلبا على مبادئ القواعد الشرعية، من خلال المحافظة على القواعد الأصلية والكلية التي تتماشى مع كل زمان ومكان،

وفي ضوء ما قيل سالفا ومن خلال هذا المداخلة ارتأينا أن نطرح مجموعة من الإشكالات الأساسية وفي مقدمتها , ما أثر المغالاة على فعالية الخطاب الديني المعاصر؟..وماانعكاسات الأفكار التجديدية التي تنطوي تحت غطاءالعصرنة على نوعية الخطاب الديني؟ والى أي مدى يمكن للخطاب المعتدل أن يوثر على نوعية الخطاب الديني؟

أولا :دراسة مصطلحية حول مفردات الموضوع (الخطاب الديني، المغالاة، سوء الفهم).

تفرض الإحاطة بكلموضوع علينامن دون شك دراسة مفاهيمه وحيثياته الأساسية، التي تهدف إلى تحقيق مختلفالمقاربات المتعلقة بكل الموضوع سوى من الناحية النظرية أو التطبيقية، فكل دراسة تستوجب علينالإلمامبمفاهيمهاومصطلحاتها قصد تحقيق أهدافها.

فكل معرفة لغوية أو علمية خطابها هو الذي يحدد مدلولاتها ويرسم حدودها الفاصلة عن بقية العلوم الأخرى ويوضح موضوعاتها ومجالاتها، وبهذا تكون المعارف مفاهيم بالدرجة الأولى ومصطلحات بالدرجة الثانية، وإن الاختلافات إذا كانت في المصطلحات تكون خطيرة، ولكنها أخطر إذا كانت في المفاهيم لأنها تؤدي للخروج عن الهدف وعدم التحكم في العلم من حيث الموضوع والمنهج، فإن مفاتيح العلوم مفاهيمها ومصطلحاتها(1).و في هذا السياق وقبل الشروع في دراسة حيثيات الموضوع يتوجب علينا أولا الإحاطة بمجمل مفاهيمه الاصطلاحية والأساسية، ومن ثم الانطلاق للإشكالية المحورية للمداخلة والإجابة على التساؤلات المطروحة.

1/ مفهوم الخطاب الديني:

يرتبط مفهوم كل خطاب ديني بأنساقه التي تحدد أنواعه ومجالاته المتعلقة بسياق الدائرة التي ينتمي إليه، فهذا التصور لمفهوم الخطاب الديني يطرح مصطلحين أساسين هما:

أ-الخطاب:

من المعلوم أن مصطلح الخطاب يقترن بمختلف الأنماط ويأخذ أشكالا مختلفة بحسب نوع كل خطاب ودلالته، فقد يكون الخطاب ثقافيا، أو سياسيا أو دينيا، وهذا الأخير بدوره يرتبط ارتباط وثيقا بأحكام وقواعد النصوص الشرعية من خلال تحليليها وتفسير أبعادها الدينية، فمجال الخطاب واسع من الجانب المفهومي تتخلله عدة تعريفات ومفاهيم منها ما يتعلق بالمعنىالاصطلاحي ومنها ما يندرج ضمن المعنىاللغوي.

- **المعنى اللغوي للخطاب:**

إن المتأمل للمعنى اللغوي للخطاب يلمس حضور عدة مفاهيم واصطلاحات تتعلق بمفهوم الخطاب،وقد ورد مفهومه في معجمقاموس المحيط، في مادة (خطب) بأن الخطاب مصدره خطب، تخطب، خطوبا، وخطب أي فرح(2).ولفظ الخطاب من حيث معناه اللغوي يدل على كل ملفوظ أكبر من الجملة منظور إليه من حيث قواعد التسلسل الجملي.(3)

فالخطاب كوحدة متكاملة يتجاوز مفهوم الجملة في جوهره ليصل النص من خلال التعبير في شكله عن وحدة لغوية واحدة، لكن هذا التقارب المصطلحي بين النص والخطاب لا يعني أنهما شئ واحد، فالخطاب أعم من النص كونه يتناول مجموعة فكرية وحداتها النص.

- **المعنى الاصطلاحي للخطاب:**

لقد أدى تنوع ميادين الخطاب إلى عدم وجود مفهوم شامل ومانع للخطاب، وهذا ما فسح المجال لوجود الكثير من التعريفات والمفاهيم التي يصب كل منها بحسب اهتمامات كل خطاب، غير أن المجال اللساني يقترب كثيرا من لفظ الخطاب. وقد عرفه اللسانيون بقولهم: "أنه نص محكوم بوحدة كلية واضحة، بحيث يتألف من جمل متواصلة ومنسجمة ومتوالية تصدر عن المخاطب الذي يود تبليغ الخطاب وإيصاله إلى المخاطب (أ)، وإذا كان الخطاب متتاليا من الجمل فمن الضروري الإبقاء على هذه الجمل إبقاءا قصديا وليس اعتباطيا على مقدار الخطاب، فالعلاقات المتماثلة بين الجمل هي التي تشكل في النهاية بنية الخطاب" (4).

فهذا الطرح اللساني يعرف الخطاب على أنه عبارة عن وحدة متكاملة تخضع للعلاقة التواصلية بن أطراف الخطاب وفق ما تقتضيه مقاصد واهتمامات المتكلمين، فهو ليس عشوائيا بل منظما يخضع في جوهرهلبنية الجمل وترتيبهامن أجل تحقيق التماسك في دلالات الخطاب.

كما ورد لفظ الخطاب في الثقافة العربية في عدة مواضع، إذ ورد في القرآن الكريم في صيغتين هما صيغة الفعل في قوله تعالى: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}(5)، وصيغة المصدر في قوله تعالى:{رب السماوات والأرض ومابينهمالا يملكون منه خطابا}(6).

ويعرف احمد المتوكل بقوله: " الخطاب هو كل ملفوظ مكتوب بشكله وحدة تواصلية قائمة الذات"(7).ومن خلال هذا التعريف نستنتج عدة مفاهيم للخطاب:

1-أنه يلفظ ويكتب.

2-يقوم الخطاب على عنصر التواصل.

3-أن الخطاب يصدر من الذات.

ب -الخطاب الديني:

إذا كان الخطاب بمفهومه قد أخذ حيزا كبيرنظرالاتساع مجالاته وتعددها فإن مفهوم الخطاب الديني يكاد يكون موحدا في مصطلحاته رغم صعوبة تعريفه، وذلك لكثرة المتغيرات الحديثة التي تطرأ عليه، ولكنه رغم ذلك فانه يقترن في العادة بمفهوم الخطاب الإسلامي وهذا يعود لتقارب المعنى والدلالة.

- **مفهوم الخطاب الديني:**

ينطلق نصر حامد أبو زيد في تعريفه للخطاب الديني بقوله : "هو مشمولات الفكر الديني ...، من تفسيرات وشروح وحواشي وتلخيصات واجتهادات فكرية ومرجعيات تراثية تتشكل كنصوص ثانية على النص الأول القرآن.(8) ويمكن تفسير ما ذهب إليه أبو زيد أنه ميز بين الخطاب القرآني والخطاب الديني، حيث اعتبر القرآن هو نقطة التقاطع من حيث الجانب المصطلحي.

يختلف مفهوم الخطاب الديني باختلافمواضيعه, فهناك الخطاب الديني المغلق، وهو خاص بالمتغيرات وله عدة مستويات، وقد يكون هذا بخصوص قضايا عامة مثل: رأي في الاقتصاد، السياسة، أو الهندسة(9).

وفي ضوء هذا فإن أنواع الخطاب تختلف باختلاف الموضوع الذي له صلة مع ما قد يحدث له من المتغيرات، وفق المستويات وهنا نطلق عليه الخطاب المغلق، أماالنوع الثاني فهو أكثر انفتاحا من سابقه كونه يشمل مختلف المجالات العامة من الخطاب، والتي يدخل فيها الخطاب لإعطاء آراء حول مفاهيم أو مواضيع عامة في مجملها، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو غيرها ...

02/ مفهوم المغالاة:

أ-معنى الغلو في معجم لسان العرب:

لقد ورد في لسان العرب لابن منظور في باب الغين لفظ المغالاة في قوله:...، وغلا في الدين، والأمر يغلو غلوا جاوز حده وفي التنزيل لا تغلوا في دينكم، وفي الحديث إياكم والغلو في الدين، أي التشدد فيه ومجاوزة الحد...، والغلو الأعداء، وغلا بالسهم يغلو غلوا، وغالى به غالاه يده، يريد أقصى الغاية، وهو التجاوز، والمغلاة بهم يتخذ المغالاة، الغلوة والمغلي سهم يغلي ترتفع حتى يتجاوز المقدار أو يقارب ذلك(10).

فالمقصود بذلك هوأن المغالاة هي التي يتجاوز فيها الملقي الحد الطبيعي، وتخرج عن القاعدة المألوفة لدرجة يفرض فيها المغالي الرأي دون وجه حق، وهذا ما أشارت إليه بعض الآيات القرآنية والأحاديث، وحذرت من مغبة المغالاة في الدين.

ب-المغالاة اصطلاحا:

ويقترن مفهوم الغلوفيالعادة بالتنطع والتشدد، وكلها مصطلحات دينية توحي إلى معاني المجاوزة، فالغلو مشتق من غلا أي زاد وارتفع وجاوز الحد

في الغلو في الدين هو تجاوز حدود الله، وأيضا مجاوزة الحد المشروع في أمر من الأمور في أن يزيد أو ينقص عن الحالة التي شرع عليها ويكون الغلو تارة بمجاوزة الحد في الترك والتفريط ويكون الغلو من خلال المبالغة والتعمق المفرط ويصل الأمر بالمغالي إلى إتباع إجراءات ووسائل مختلفة لإقناع غيره بقناعة مختلفة ولو كانت الوسائل سلبية(11).

فالتصور الديني لمفهوم المغالاة ينطلق من فكرة مفادها أن الغلو هو تجاوز حدود الله المشروعة من خلال الزيادة أو المبالغة، فيؤدي بالمبالغ لاستخدام كافة الوسائل لإقناع الغير في أمر خاطئ ولو كانت غير مشروعة، قصد تحقيق غاياته وأهدافه الذاتية القائمة على رؤية انفرادية.

03/ التصور المقاربيلسوء الفهم:

يأخذ سوء الفهم في الخطاب الديني عدة أشكال وأنماط فمنها مايتعلقبغياب الفهم والإدراك لمختلفالنصوص والأحكام الشرعية ومنها مايتعلق بميادين الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية، وسوء الفهم يعنى غياب الإدراك لحقيقة الأمورفي غير طبيعتها، فسوء الفهم في الدين يعتبر من أعقد المشكلات على الإطلاق لأنه يتعلق بمبادئ الشريعة الإسلامية،التي تحدد منهج الفرد داخل نطاق الحيز الذي ينتمي إليه داخل وفق أصول ومبادئ الشريعة الإسلامية ولا يكون ذلك إلا بالفهم الصحيح لهذه القواعد، والمقصودبالفهم هو معرفة الأشياء وفهمها وهو عكس سوء الفهم.

والفهم هو العملية التي يتم بها إدراك الموقف أوالموضوع الخارجي وربطهفي إطار علاقة محددة، فهولذلك يعتبر نتاج عوامل النضج والتعلم، ولابدمن التفرقة بين الفهم إدراك العلاقة.(12)

فالفهم معرفة الأشياءبالقلب ويقال فهمه، فهماوفهامة،والشيء فهمته، وعرفته وفهمت فلان ،وأفهمته، وتفهم الكلامفهمه شيئا بعد شي ويقال رجل سريع الفهم ، ويقال فهم ،وفهم، وأفهمه، وفهمه إياه، وجعله يفهمه، وأستفهم الشيء أي فهمه، وتفهم .(13)

ثانيا: إشكالية المغالاة في الخطاب الديني المعاصر

تأخذ مسألة المغالاة مجالا كبيرا في الحياة الدينية لما لها من أثر وانعكاسات سلبية على المجتمع الإسلامي، وهذا ما يفسره الواقع المعاش حيث تداخلت وتنازعت المفاهيم المتعلقة بالخطاب الديني أصبح شكليا شانه في ذلك شأن الخطابات الأخرى، وهذا بدوره ما أدى إلى اتساع الفجوة وانعكاساتها على أداءات المخاطبين من خلال التأثير على اهتماماتهم ومقاصدهم.

أ- حضور نزعة المغالاة في الخطاب الديني:

لقد أمرنا الشارع الحكيم بالابتعاد عن الغلو في الدين وتجاوز حدود الله تعالى خلال قوله: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولاتقولواعلى الله إلا الحق} سورة النساء 171. (14)فمسألة المغالاة قديمةمتأصلة عند أهل الكتاب، كما أخذت هذه المسألة حيزا كبيرا في عهد الصحابة من خلال حضورها في مختلف المعاملات اليومية خلال تلك الفترة،فقد وردهذا المفهوم في عدة مواضع في القرآن والسنة، ينهنا الله من خلالهاعن عدم المغالاة في الدين التي قد ينجر عنها عواقب من شأنها أن تؤدي إلى الفهم الخاطئ الذي يؤدي بدوره إلى تجاوز حدود الله سبحانه وتعالى.

فالغلو في الدين معاقبه وخيمة على الفرد والمجتمع على حد سواء فهو يؤدي إلى ظهور أفكار دخيلة،وخطابات متطرفة لا علاقة لها بالإسلام لا من بعيد ولا من قريب، وهذا ما أثربدوره على مستوى الخطاب المعاصر، حيث أدى إلى اتساع الهوة بين المتكلمين ومقاصدالشريعة الإسلامية، فصارت خطاباتهم يغلب عليها طابع المغالاة والتنطع التي نهى عنها الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله: "هلك المتعنطون".

وهذه الخطابات تكون أرضية خصبة وسهلة للتأويل لأن معظمها خارج عن مقاصد وأحكام الشريعة الإسلامية، سواء تعلق الأمر بالفهم الخاطئ أو الجهل المقصود لأحكام النصوص الشرعية الذي من شأنه أن يؤدي إلى التي تأجيج روح الكراهية في أوساط المجتمعات الإسلامية، فالفهم الخاطئ المترتب عن الجهل يعتبر أحد الأسباب التي أدت إلى تفاقم الخطاب الديني المتشدد الذي ينبثق عن عدم العلم بالأمور أو الانسياق حول أفكار عصبية ومعتقدات دينية خارج الأحكام الشرعية.

ب- مسببات ودوافع المغالاة في الخطاب الديني:.

تتداخل أسباب ودوافع المغالاة في الدين وتختلف من عصر إلى آخر باختلاف العوامل والمؤثرات التي تؤثر في أداء الخطاب الديني، فالخطاب الديني في العصور القديمة يختلف عنه في الحديثة ويعود هذا التفارق لطبيعة البناء الثقافي التي اتسمت به تلك الفترة فكانت الخطابات في بدايته الأولى رهينة بالمواقف الحزينة، ثم تطورت لتشمل مستويات المطالب السياسية والنظرية المرتبطة بها، فبدأ المؤثر الإسلامي مجرد رافد من روافدها، لا يتعد هذا الدور بحجة يستطيع تصنعها ضمن مساق اللون الديني الصريح(15).

يبدو أن أنماط الخطابات الدينية تراوحت في هذه المرحلة بين الحزن والزهد والوعظ من خلال الدعوة للخير، وهذا ما يفسر معالم هذه المرحلة غير أن واقع الخطاب المعاصر يختلف اختلافا كليا عن ما كانت عليه خطابات قديمة وذلك يعود لظهور تيارات فكرية عصرية متداخلة نتيجة للاختلافات الفكرية، وهذا ما انعكس على أداء الخطاب وارتسمت فيه معالم واضحة تدعو للتشدد والتطرف سواءعن نية أوجهل. وهذا يعود لعدة أسباب وعوامل ساهمت في تأجيج خطاب الديني يمكن حصرها في ما يلي:

1- عدم الإلمام الكلي بالأحكام المتعلقة بمقاصد الشريعة الإسلامية أو الناتجة عن الجهل، وأبرز جوانب الجهل هي :

- الجهل بالكتاب.
- الجهل بالسنة.
- الجهل بمقاصد الشريعة الإسلامية.
- الجهل بأقوال العلماء.
- الجهل باللغة العربية.
- الجهل بالوقائع والملابسات.
- الجهل بمراتب النص.(16)

ومن خلال هذا نستشف أن الجهل قد يتعلق بالجانب التفكيري فيولد المغالاة فيه من خلال منطلقات التي تقوم على عدم المعرفة الصحيحة بمختلف الأحكام والمقاصد، وهذا ما ينتج خطابا ديني يغلب عليه الطابع التأويلي الذييخرج عن حقيقة ما تسمو به الشريعة الإسلامية من مبادئ

تهدف في مجملها لبناء مجتمع متماسك،ولايكون ذلك إلا من خلال تيسير في معالم ديننا الحنيف.

2- انعكاسات البيئة على نوعية الأداء الخطابي :

مما لا شك فيه أن الإنسان يعيش في وسط طبيعي فهو يؤثر ويتأثر بما حوله، فطبيعة التفكير تختلف من مكان إلى آخر، لا وقد تختلف في المكان الواحد، وبالتالي فهي تعكس أثر المكون الاجتماعي في صقل طبيعة الفرد وهذا، بدوره ما يؤدي إلى التنوع والعصبية التي تساهم في تنامي نزعة المغالاة في الخطابات الدينية خاصة في المجتمعات التي تعيش في عزلة أوحتى ظروف اجتماعية صعبة تجعل منها مجالا خصب لمختلف هذه الممارسة الخاطئة والتي تنعكس فيما بعد على أفرادها الذين ينتجون بدورهم خطابات دينية يغلب عليها طابع المغالاة والتعصب في أداء الخطاب الديني.

3- غموض المعرفة المنهجية كوجه من وجوه المغالاة:

يعد الخلل في المنهج كأحد العوامل المؤثرة في الخطاب الديني المعاصر،لكونه يرسم المعالم والآليات المتبعة في العملية الخطابية ،وهذا من شأنه أن يؤثر على الأداء الخطابي وكذا نوعيته والأهدافالمتوخاة والتي يحدده منهج الملقي،لكن هذا المنهج قدر يعتريه لبس قد يوثر عليه بطريقة مباشرة أوغير مباشرة على فعالية الخطاب، وهو ماينتج أفكار قد تصل إلى حد التحريف،ويمكن إدراجأسباب أهم*الخلال في المنهج الدينيالتي أشار إليها عبد الرحمان معلا اللويحق في النقاط التالية:

- المنهج الحرفي في فهم النصوص.

- انعدام النظرة الشمولية.
- إتباع التشابه.
- انعدام الموضوعية .
- عدم الجمع بين الأدلة.
- الاجتهاد من غير أهله وعدن الأخذ من المصادر المعتبرة(17).

*وقد يكون الخلل أيضا في المناهج التعليمية وذلك من خلال عدم إدراج وتوضيح هذه المفاهيم لطلاب مختلف المراحل التعليمية، وهذا ما قد يؤدي إلى الوقوع في أخطاء تتسبب فيما بعد لقراءات تأويلية لمختلف القواعد الفقهية.

3- غياب النظرة الشمولية للتواصل الخطابي

4-الإعتماد الظاهري على الأحكام الشرعية

لقد تضافرت كل هذه العوامل وغيرها حيث أصبحت سببا واضحا في عدم فهم مختلف الخطاب الديني وسيما ما اتصل بالأحكام والنصوص الشرعية سواء بسبب تأثير العامل البيئي على الأداء الخطابي، أو غياب تأسيس صحيح لمختلف المناهج وهو ما كان له تأثير مباشر على العلاقة القائمة بين أطراف الخطاب،كما أن الفهم العقيم لأحكام الشريعة الإسلامية هو أحد الأسباب التي أثرت الخطاب الديني ذلك نتيجة لهؤلاء الذين ينصبون أنفسهم حماة لراية، فيحللون هذا ويحرمون ذاك دون وجه حق متجاوزين بذلك حدود الله .

ثالثا: فكرة العصرنة كمظهر لسوء فهم الخطاب الديني

تتعدد وتتنوع أوجه سوء الفهم لحقيقة الدين، سواء ما تعلق لغياب فهم النصوص والأحكام الشرعية، أومن خلال ما تعلق بالمنظور التجديدي التحرري الذي ينطوي تحت غطاء العصرنة التي تحمل في طياتها أفكارا مخالفة لمعالم الشريعة الإسلامية، وهذا من خلال ما تحمله هذه المفاهيم من انعكاسات سلبية على تطويع الخطاب الديني، حيث تسعى هذه الاتجاهات بتبرير مواقفها اتجاه الخطاب الديني تحت خلفية التحرر وحرية التعبير من خلال تغليب العقل على الدين في محاولة غير مباشرة لطمس معالم الإسلام بأفكار لا علاقة لها بتعاليم الشريعة الإسلامية.

أ- ولج فكرة العصرنة لتنميط الخطاب الديني:

لقد عمد ما يصطلح على تسميتهم بالعصرانيين لمحاولة محو أبعاد الخطاب من خلال جملة المفاهيم التأويلية لبعض القواعد الدينية إما عن جهل أو خدمة لأفكارهم . والعصرانيين يزعمون بأن أقوالهم إنما هي تعبير عن اجتهاد إسلامي جديد لظروف، بينما اتبعوا عن أقوالهم على أن خطابهم في حقيقة الأمر إنما هو خطاب عصري أو علماني في جل شأنه، وإن كانوا في ذلك ليسوا على درجة واحدة وهؤلاء أعدا كثيرة وغفيرة على طول بلاد المسلمين وعرضها، ذكر محمد الصالح عبد الناصر ذلك في كتابه :"العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب(18). وعليه فهذه الفكرة مزيج بين اجتياح العولمة الغربية لمختلف ميادين الحياة الدينية، فأفكار التجديدالداعية للحرية تقوم على مبدأ فصل الدين عن الحياة المعاصرة والتي هي فكرة غربية في صميمها.

ب- العولمة وانعكاساتها على الخطاب الديني:

لقد أخذت الأفكارالتجديدية منعرجات خطيرة على مستوى ونوعية الخطاب الديني، حيث باتت هاته الأفكار تهدد مقومات الخطاب الديني، مما أدى إلى تحريف أحكامه وكلياتها تحت حرية الفهم والإدراك. فالعولمة تهدف لمحاولة دمج العالم كله في نسق واحد فكري، وسياسي، واقتصادي حيث لا تكون هناك خصوصيات شعب من الشعوب وهذه الطريقة يأتي عليها أصحاب الثقافة الأصلية والهوايات المستقلة كالمسلمين، ومن ثمة العمل بقوة على إحداث التغيرات اللازمة باسم تجديد الخطاب الدين كأحد الشروط لنجاح الخطاب الديني في بلاد المسلمين(19).

ونستشف من خلال ذلك أن العولمة تهدف إلى محاولة دمج مختلف المجالات الثقافية والفكرية والدينية، وهو ما يؤدي بدوره إلى احداث تغيرات باسم ما يعرف بالتجديد كأحد شروط نجاح العولمة في بلاد المسلمين، والتجديد كمفهوم يهدف للمساس بالخطاب الديني بطريقة أو بأخرى باسم العصرنة فأفاق النزعة التجديدية تتجاوز كل حدود متخذة بذلك عدة طرق كالإعلام والتعبة، وجميع ا الوسائل المتاحة لتحقيق أهدافها الغربية التي تهدف للتشويه الاسلام وتصويره على أنه دين تعصب وقتل، وذلك لخدمة أغراضهم ومصالحهم الإقتصادية ، متجهلين الفطرة الصافية التي فطر الله عليها عباده ورح الاسلام المعتدل التي ترتبط بعظمة القران الكريم ،فهم يقرون بالتجديد في الحياة بعيدا عن أحكام الشريعة الإسلامية،ويعتبرون وسيلة ا لحا دثة و مظهرا من مظاهر التقدم والرقي. وهذا السياق يجب التمييز بين التجدد والتجديد فيسمون لسذاجتهم كل متجدد منبينهم مجداد،

ظنامنهم أن كل من جاء بطرق جديدة ثم أمضاه بشئ من القوة والحزم فهو مجدد.(20)

ولذلك لا نرى هؤلاء دعاة اللغة والادب على شرط ألا يكون ثمة قرآن ولا حديث، وأن تكون الصبغة لا دينية، وحجتهم في ذلك التجديد وكون القرآن والحديث كلمة السلف كلها من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح العصرية في شيء، وآخرون حجتهم في ذلك الزعة القومية التي هي بزعمهم تناقض النزعة الدينية وأصحاب النزعة القومية هؤلاء يقولون أنها من باب التجديد وأن روح القومية السائدة في هذا العصر، فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان، فإذا سألهم قائلا : إنكم أنتم دعاة التجديد ومن قواعد الأدب لا تئكرون.(21)

ومن خلال هذا تتضح معالم رؤية العولمة التي تستبعد الدين عن مختلف الممارسات والاعمال الدنيويةوترمي إلى وإلغاء الماضي كونها لاتتصل به، وهو ما يتوافق إلى ما تدعو إليه الحداثة فهؤلاء يؤمنون بالقومية التي يعتبرونها مهدا للتجديد، وأنه يجب فصل الدين عن المعاصرة وهذا دليل واضح على غياب الوعي ، وهو بدوره ما يجعل الخطاب الشرعي بعيدا عن تحقيق أهدافه والخروج عن المألوف من شأنه أن يزعزع خواصر الخطاب الديني.

ت- مدى تأثير المد العلماني على الخطاب الديني

يتسم التفكير العلماني بمنطلق يؤسس لعدم فهم الدين تحت راية التحرر، وتغليب العقل في مختلف المجالات لتشمل المجال الديني، وهو ما يخالف ما جاء به الشارع الحكيم، فهو تعبير ضيق يقتصر على تصور يغلب

عليه الشكل على حساب الوظيفة. ويكاد الخطاب الديني المعاصر يتماسك بالشكليات ويحرص عليها، مهدرا لكليات الشريعة ومقاصدها،فالعبادات عند الكثير من المتكلمين والفلاسفة وعلوم أصول الفقه مثلها مثل التشريعات إلى نفع الناس وتحقيق المصالح ذلك أن الإنسان هو الهدف في كل ما جاء به الدين وفصلوا بين العبادات والمعاملات وأخرجوا إلى مجال المقاصد وهذا الموقف الذي يتنابه الخطاب الديني المعاصر ويدافع عنه من يطلق عليه أصحابه في التراث "المحققين"، لأن الاجتهاد الآخر ليس صائب وأن أصحابه ليسوا من المحققين(22).

يحاول أصحاب المد العلماني فصل الدين عن مختلف المعاملات والعبادات، وهذا ما أسفر بدوره عن خطاب ديني شكلي، فكيف لا ؟ وهم من يعتبرون أن الإنسان هو الهدف والغاية، وهو ما يتنافى مع أحكام الشريعة الإسلامية. ما يجعل الخطاب الشرعي عاجزا عن تحقيق أهدافه ويبدو الانفصام المفترض بين الإسلام والواقع حدثا قدريا، ولعل هذا التفسير لعجز الخطاب الديني عن تقديم حلول تفصيلية لمشكلات الواقع...، وينتقل الخطاب الديني من الافتراض إلى توظيب الواقع لاقتراح الحل، وحسم قاطع، وكأنه يطرح أولويات أو بديهيات(23).

وعليه فالانفصام المفترض بين حقيقة الإسلام والعلمانية هو ما ينقص ويحد من فاعلية الخطاب الديني كونه بعيد كل البعد عن مقاصده وأحكام الشريعة الإسلامية، فهو فهم خاطئ يؤسس لأفكار تناقض العقيدة الإسلامية الإسلام دين متكامل، وليس مجرد شعائر دينية تؤدى هكذا بل هو قواعد ومنطلقات تقوم على الاستقامة في الفعل والقول ، فالفكر التجديدي

هومقصد أساسي للفكر العلماني الذي يعتبر الحداثة كشرط أساسي في الدين متأثرين بالفكر الغربي.

وهذا أن بعضا من أدعياء الجديد لا دعاة الجديد لا يحاربون القرآن ولا الشرع عن بحث دقيق ومقاييس مقابلة للقديم أو الجديد، ويريدون المفيد معرفا كان أو محدثا ، بل هم اختاروا مذهبهم من قبل وأخرجوا كل جديد كيف كان وبدون محاكمة ذلك ليقال عنهم رقاة عصريون (24).

وفي ضوء هذه الصراعات والمؤثرات وجب أكثر من كل وقت مضى التمسك بروح الوسطية و الاعتدال والابتعاد عن الغلو والتشدد في الخطاب الديني بما يضمن تحقيق أهدافه ،ولا يقصد بالاعتدال التهاون والتقصير في الدين،ولكن تطبيق القواعد الشرعية من مفهوم واضح وصحيح بما يحقق مقاصد الشريعة الإسلامية، وكما يجب التحذير من الأفكار التجديدية التي لا تمتّ للإسلام بصلة تحت ما يعرف بالحداثة في إطار العولمة والعلمانية التي تفصل الدين عن المعاصرة ، فالإسلام منهج متكامل جامع جعله الله سبحانه وتعالى لكل مكان وزمان ، فالمقصود بالابتعاد عن فكرة العصرنة التي في جوهره تعني الابتعاد عن الأفكار التي تمس بأحكام الشريعة الإسلامية ، وليست الاستتباب لمختلف مقتضيات العصر ويبقى هذا كله وفق ما رسمه الشارع الحكيم.

ويمكن توضيح معالم الخطاب الديني المعاصر من ذلك من خلال المخطط الآتي :

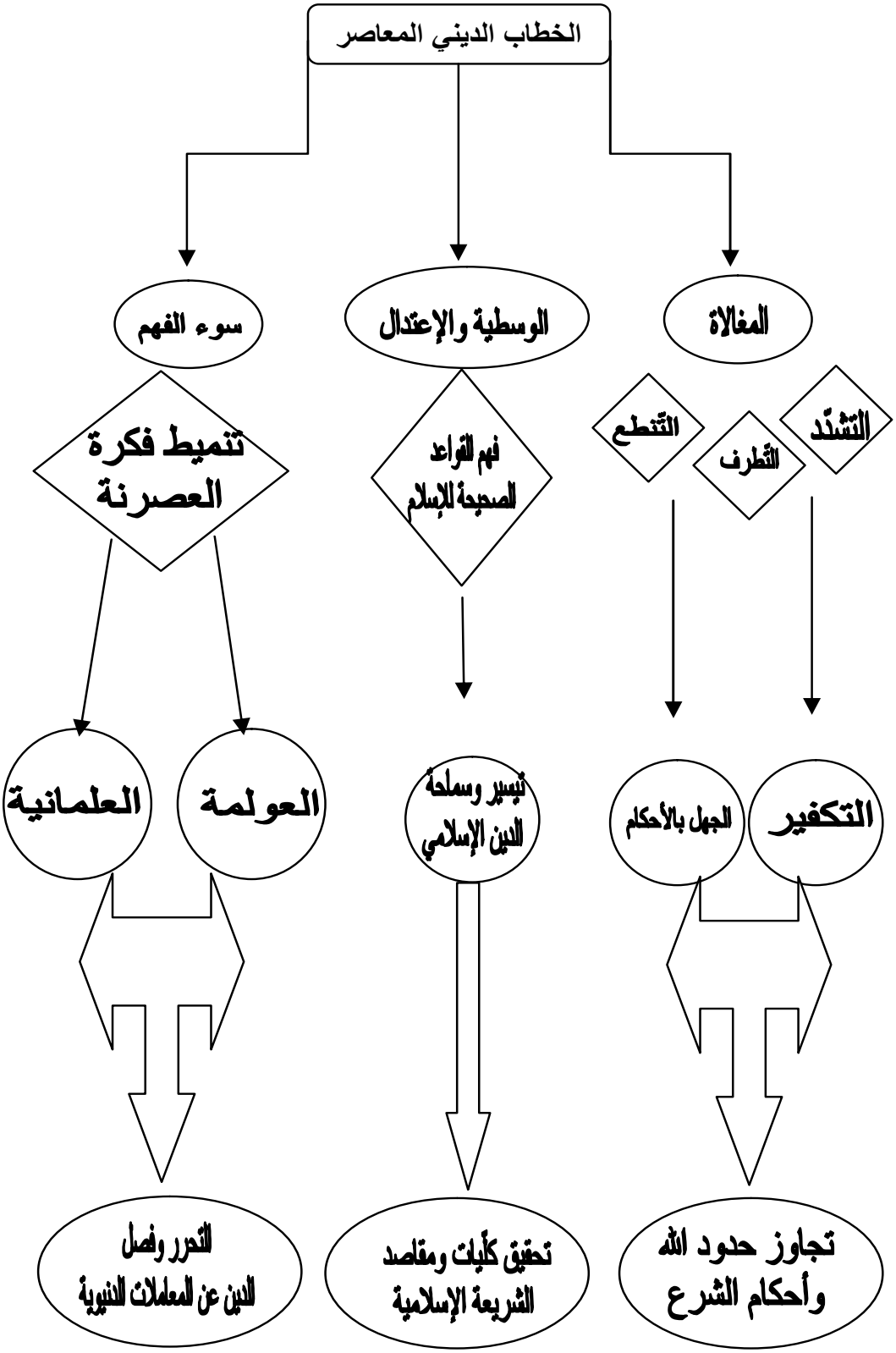

مخطط يوضح مختلف التصورات للحدود الخطاب الديني المعاصر

خلاصة :

يبدو أن إدراك الأمور وفهمها لا يكون بالتشدد أو بالجهل بأحكام الشريعة بل يجب الالتجاء إلى الوسطية والاعتدال مصداقا لقوله تعالى :{لو كنت فظّا غليظ القلب لانفضوا من حولك}[25]، فدعاة التجديد يهدفون بطريقة أو بأخرى للمساس بأحكام الشريعة الإسلامية والفهم الخاطئ لها تحت غطاء التحرر والحداثة وهذا ما يمس من دون شك من قواعد الدين الإسلامي الحنيف.

قائمة المصادر والمراجع :

1- بشير إبرير، علم المصطلح وممارسة البحث، مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري جامعة بسكرة، عدد2، سنة2005، ص265-266.
2- الفيروز آبادي قاموس المحيط، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، ج1، ص56.
3- نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة مرجعية، الكتاب الحديث، الأردن، 2009، ص14.
4- محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2009، ص16.
5- سورة الفرقان، الآية63.
6- سورة النبأ، الآية37 .
7- بشير خليفي، الخطاب وخصائص اللغة العربي، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، ط1، 2011، ص24.
8- عبد السلام يوبي، المسكوت عنه في تقدير حامد أبو زيد، آليات الخطاب الديني ، قراءة تحليلية، ماجستير 2011، ص 30.
9- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديدة، ط1، 2004 ص23.
10- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار المعارف، باب الغين،ص2391-2390.

11- عواج كميلية، التطرف الديني وأثره على التماسك الديني، رسالة الماجستير، علم الاجتماع، ص41.
12- بشير إبرير، تعليمية النصوص بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2007، ص133.
13- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ص2471
14- سورة النساء الآية، 171.
15- مي يوسف خليف، تطور الأداء الخطابي، بين عصر الإسلام وبني أمية، دار الغريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط1،ص92.
16- عبد الرحمان بن معلا اللويحق المطيري، الغلو في الدين في حياة المسلمين،موسوعة الرسالة،ص133.
17- عبد الرحمان بن معلا اللويحقالمطيري ، الغلو في الدين في حياة المسلمين، ص 133.
18- محمد بن شاكر الشريف،الخطاب الديني بين التأصيل و التحريف،مكتبة الفهد الوطنية ،ط1، 2000،ص67.
19- محمد بن شاكر الشريف،الخطاب الديني بين التأصيل و التحريف ، ص90، ص91.
20- أبو الأعلى المردودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحياءه، دار السعودية للنشر والتوزيع، 1985، ص48.
21- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المعركة بين القديم و الجديد ، مؤسسة الرافعي، مؤسسة هنداوي للتعليم، 2012، ص23.
22- نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني،سيناء للنشر،ط2،ص90.
23- نصر حامد أبو زيد،نقد الخطاب الديني ، سيناء للنشر،ط2، ص 91.
24- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المعركة بين القديم و الجديد،ص35.
25- سورة آل عمران الآية 159.